(١٨)

بقية الله

رسالة الروح بعد رسالة النفس

ليقظة العقل وقيام الحياة

حديث الجمعة

٢٠ ذو القعدة ١٣٨٠ هـ - ٥ مايو ١٩٦١ م

{يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء}[١].

يا أيها الناس..

استيقظوا من نومكم..

ارجعوا البصر كرتين.. كرة إلى ماضيكم على أرضكم، وكرة إلى ما تنتظرون من مستقبل جنسكم على أرضكم. إن فعلتم! ينقلب إليكم البصر خاسئا وهو حسير. إن فعلتم! يكشف عنكم غطاؤكم. إن فعلتم! تعلم نفس ما قدمت وما أخرت، ولِمَ عادت؟ ولِمَ وجدت؟ وفي أي طريق سُيرت؟ فتعرف كيف نشأت وممن بدأت. إن فعلتم رأيتم ثبات جنسكم، وتجدد مفرداتكم، ودوام ذكركم فرعا لقديم، وأصلا لجديد.

يا أيها الناس..

إن الذي تدعون من ذكركم الله إنما هو معكم أينما كنتم، وكيفما كنتم، ومتى كنتم، وهو جماع ما أنتم على ما أنتم تشهدون في حاضر يومكم، من الأرض بدأكم ولا بدء لكم! كما تشهدون من الأرض انتهاءكم ولا انتهاء لكم! تشهدون يوما من أيام أو ليلة من ليالي، وأيامكم لا تعد ولياليكم لا تحصى.

يا أيها الناس..

إن الذي تلوك ألسنتكم من أمر ربكم، إنما هو ما هو قائم على كل نفس منكم بما كسبت، إنما هو ما هو من وراء كل نفس منكم بما يحيط، أنتم له وجوه - على ما أنتم - علما على حكمته، وعلما على إرادته، وعلما على صنعه، وعلما على أمره، وعلما على حقه، وعلما على خلقه، وعلما على فعله، وعلما على فاعليته، وعلما على ما فعل، وعلما على ما انفعل، وعلما على ما يفعل، علما على أسمائه وصفاته. ملكوته بين جوانحكم، وقبلته في قلوبكم، وعوالمه في ذواتكم.

يا أيها الناس..

لا تسوفوا أمر الله وهو عليكم قائم، ولا تسوفوا وجه الله وهو بكم قائم، ولا تسوفوا ما وعدكم الله في أنفسكم وهو في قيامكم نافذ قائم، ولا تسوفوا ما وعدكم الله وهو بينكم قائم، ولا تسوفوا ما أعلمكم الله أو علَّمكم عنكم، فهو بينكم وفيكم وبكم متواجد وموجود ويتواجد.

يا أيها الناس..

لا تسوفوا ما جاءكم به الدين في شأن جنة أو نار، وفي شأن دنيا تمرون بها أو آخرة تستقرون فيها، أو قبلية لا وجود لكم في زمانها، أو بعدية تتواجدونها تواجدا لا تفنون فيه أبدا. فكل ذلك أمر الله وشأنه، وكل هذا لكم قائم، وعليكم قائم، وبكم قائم، وفيكم يقوم، وبكم ينفذ، وبإرادتكم يتواجد، وبإرادتكم في الغفلة عنه يختفي، وبكشف الغفلة يشهد ويدرك.

يا أيها الناس..

لا تفرِقوا بين الله ورسله، ولا تفرِقوا بين رسل الله وبينكم. إن الله يصل رسله ويصلي عليهم في حياتهم برسالاتهم وعليهم فيمن يدعون بدعوتهم. وإن رسله يصلونكم ويصلون عليكم ما وصلتموهم بمتابعة، ويتصفونكم ما اتصفتموهم بمحبة، ويتواجدونكم ما تواجدتموهم بمعرفة بالله.. وبذلك يصلي الله عليكم صلاته عليهم، فيخرجكم بصلاته وصلته من الظلمات إلى النور. إن الله وملائكته يصلون على كل نبي.. إن الله وملائكته يصلون على كل إمام.. إن الله وملائكته يصلون على كل ولي.. إن الله وملائكته يصلون على كل نفس تزكت.. إن الله وملائكته يصلون على كل عبد لله، على كل عبد للرحمن، على كل رحمة مهداة. لقد كشف محمد ذلك للناس فانقطع به الإنباء عن الحياة، وقامت به الحياة لكافة الناس، وإن عباد الله وكل من صلى عليهم الله وملائكته يصلون على الناس لتكون صلاتهم وصلتهم بالناس سكنا لهم ورحمة من الله عليهم، وصلة من الله بهم وصلاة منه عليهم. وبذلك كانت أمته بمعناه، الحق الوسط بين قديم ومحدث الحقائق للخلائق من أمم البشرية السرمدية.

يا أيها الناس..

لا تغيبوا الديان فيغيب الدين.

يا أيها الناس..

ادخلوا في الدين لتشهدوا في أنفسكم الديان. إن الله معكم على دوام. وصفاته قائمة عليكم وقائمة بكم على غير انقطاع. في أمن وسلام.

يا أيها الناس..

أما آن لأرض نفوسكم أن تشرق بشمس الله، وأن تتغذى بنور الله، وأن تقوم بأمر الله؟! أما آن لأرض نفوسكم أن تخشع لذكر الله، وأن تستقبل ماء الحياة، وأن تهتز وتربو وتثمر فتكسو أديمها بخضرتها، وتغذى أرضها بثمرتها؟! أما آن لها أن تخرج أثقالها، وتخرج من خمودها إلى حركتها.. فتتصاعد في السماء بغصون شجرتها.. وتمتد في باطن الأرض بجذور عترتها.. وتقوم شامخة بوحدتها.. وتمتد وتتسع وتتكاثر جنة لله ببهجتها، فيها كلمات الله الطيبة، فيها أصول إنسانية الله من أوادمه، فيها كلماته التامات في وحدتها قدسي حضرتها؟!

يا أيها الناس..

أما آن لكم أن تدركوا في الله عظمة أنفسكم به موصولة، وضآلة أنفسكم عنه مقطوعة.. بين شجرات خبيثة تجتث من فوق سطح الأرض فما لها من قرار.. وشجرات طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء، تؤتي أُكلها بإذن ربها كل حين؟!

يا أيها الناس..

أما آن لكم أن تبدأوا من أنفسكم متأملين، وأن تطلبوا الله بدءا من معيتكم شاكرين، ولربكم معكم ذاكرين؟! أما آن لكم أن تدركوا أنكم ظاهر ربكم؟! أما آن لكم أن تدركوا أن ربكم ليس إلا باطنكم من الله؟! أما آن لكم أن تدركوا أنكم وربكم من الحي القيوم؟ بالحياة منه تقومون فيظهر، وبالحياة عليكم يقوم فتحيون، وبوابة الموت إلى الحياة تجتازون، فتعلمون أن الموت ما خلق إلا نعمة لكم، لها تجهلون وبها تجحدون، وأن الحياة به مخلوقة لكم ولسعادتكم وديموميتكم لها لا تدركون ولا تطلبون ولا تعلمون، وأن الله الحي القيوم لا يُخلق ولا يَخلِق، ولكنه ينفعل بالظهور فيظهر خلقا، وينفعل بالكبرياء والتعالي، فيختفي عن جلابيبه من خلقه إلى معانيه من حقه.

أما آن لكم أن تعلموا أن الإنسان في معناكم، وأن الإنسان في غيبكم، وأن الإنسان فيما لا تدركون من غيب أو شهادة، إنما هو الإنسان؟ لا يتبعض ولا يتجزأ ولا ينفصل ولا يختلف.. ولكنه في أمر صامد لأنه من الحق ولأنه الحق.

إن الإنسان هو الخلق، وإن الإنسان هو الحق، وإن الإنسان هو العبد، وإن الإنسان هو الرب، وإن الإنسان هو الظاهر، وإن الإنسان هو الباطن، وإن الإنسان هو المخلوق، وإن الإنسان هو الخالق، إن الإنسان هو كل شيء. فإن فقد إنسانيته فهو لا شيء. إن الإنسان هو الله في كنزيته وتعاليه. إن الإنسان هو الله في فاعليته وتدانيه. إن الإنسان هو الله في قدرته بالله خالقا، وفي تجلي الله به موصوفا بالخلق.

لا تعطوا حاضر إنسانيتكم ما لا يَستحق أو أكثر مما يستحق، ولا تمنعوا إنسانيتكم عما تستحق. ما من كمال للإنسان إلا وعند الله أكمل منه. وما من فعل للإنسان يسيء إليه ويضيعه إلا وعند الله ما هو أقسى منه.

إن الإنسان بحقيته هو المختار لعدمه بإرادته، والمختار للحياة بها بإرادته. واختيار الإيمان هو اختيار للحياة، واختيار الكفر هو اختيار للعدم. ومن شاء فليؤمن بالله في نفسه. ومن شاء فليكفر بالله في معنى غيره. إن الله لا يقبل أن يشرك به، ويغفر ما دون الشرك به.. {إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء}[٢]، {يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله. إن الله يغفر الذنوب جميعا}[٣].

إنكم بتواجدكم على هذه الأرض، وعلى هذه الصورة، وبهذه الإمكانيات، وبهذه الإرادة الحرة الطليقة، كانت لكم فرصة الحياة. إنها فرصة الأنا. إنها فرصة الوجود.. إنها فرصة العمر.. إنها فرصة الشهود.. إنها فرصة التواجد.. إنها فرصة التزاوج والتخالل.. إنها فرصة التوالد والتكاثر.. إنها فرصة الامتداد بحاضر الحياة، في التكاثر بمظاهر وجلود الحياة لكسب ذات الدوام بالحياة.

إنكم في هذه الحياة، إن حييتم، تمتدون في آبائكم سَامقين، وتمتدون في أبنائكم قائمين، وتمتدون في مزاوجيكم متسعين، وتمتدون في أحبابكم وإخوانكم شافعين. إنكم في هذا النوع من الحياة على هذه الأرض من حيوات إنسانية الكواكب، ومن حيوات إنسانية الروح، تجمعون ما بين حياة عوالم الروح وحياة عوالم الكواكب، تجمعون بين حياة الخلق وبين حياة الحق، تجمعون بين ظاهر الحياة وباطن الحياة، تجمعون بين مرضي الحياة في دور الرضاء، وبين مقلو الحياة في دور الابتلاء. إنها صورة صغيرة مجسمة لحياة العالم الأكبر.

إنكم في حياة ما قبل آدم تتواجدونه. إن ذواتكم هي أرض آدم ولبنات ذاته بيتا لله، ما ارتبطت قلوبكم، وتراصت ذواتكم، والتحمت نفوسكم، واتحدت عقولكم، وامتزجت أرواحكم، وتوحدت في الله وجهتكم، فاستقامت طريقكم. فآدم الله يقومكم وتقوموه، ويشهدكم وتشهدوه، ويتواجدكم وتتواجدوه، بيتا لله تتجمع بكم أركانه، ويتصاعد بكم بنيانه، ويتجدد بكم في الدهر زمانه، ويبقى ويصمد في الحياة ذكره وعنوانه.. ذكرًا لله وعلمًا على الله ووجها لله، في وحدة لوجوه ناضرة بوجه ربها لوجهه ناظرة، تقوم قيام أمره، وتكشف مكنون سره، وترفع للناس فيهم عنهم ستره.. أول عابدين لا آخر لهم وأول ذاكرين لا انتهاء لهم، وأول عاملين لا انقضاء لعملهم ولا توقف لبنائهم وفعلهم.. بهم يستدير الزمان على هيأته كيوم خلق الله السموات والأرض من سدم دخانها من النفوس سرجا لله، وأراضين لله، وسموات لله، وملك ومماليك لله.. إنسان الله لهم جماعهم رب العالمين، ملك ومالك يوم الدين وجها لله وطلعة له.. مشهودا لوجه المعبود من الله مخاطبا من وجوهه بالعابدين {إياك نعبد}[٤]، ومن وجوهه بالفقراء المفتقرين {وإياك نستعين}[٥].. ومن وجوه علمه الذين يعلمون أن عطاء الله غير مجذوذ، وأنهم وربهم في تعالٍ لا انتهاء له، فيطلبون الأكثر من الرشاد، ويفارقون ما بقي من العناد {اهدنا الصراط المستقيم}[٦] يطلبون مزيدا من استقامة السبيل الذي لا نهاية له والذي لا بداية له، والذي لا يحده عرض ولا تشغله أرض.. {صراط الذين أنعمت عليهم}[٧] أولين مع من أنعمت عليهم من العابدين فما كنا في أولئك بأولين.. فالأولية فيك لأولية معناك وهذه نعمتك لمن تشاء، يا صمد الصفات، لا تنقطع أولياتك، ولا تتوقف عن إبراز آحادك.. وكل أحد فيك ليس كفؤا لأحديتك، وإن كان أحدية خلقك.. وأحدية عبادك يتوحدون مع أحدية عبدٍ لك.. يا أحد الآحاد.. يا أولية الأولين بلا أولية له.. يا أولية الأولين السرمدية، والسرمدية من فعله ومن عطائه.

ها نحن نعتقد أمرك، ونرى عدمنا مع وجودك، كما نرى ضعفنا وقدرتك، ونرى سعادتنا في اصطفائك، لم تلد ولم تولد، كلماتك إلى آدم بك منك إليك بإرادتك هو أحدها وجماعها أوجدته فيه باصطفائك، وجعلته وجه ربوبيتك إلينا ووجه عبوديتك إليك، وكنت قديمه بنورك، وكان جديدك في معنى ذاتك. كنت مذكوره وكان ذكرك. كنت أوليته وكان أوليتنا. أوليتنا فيك لك.. به عرفناك وبه نتواجد بمعناه لمبناك عبادا لك جددته لنا عبدا رسولا.. وجعلته بقديمه من معناه بك موصولا.. وجعلته بما أودعته من حقك لنا حوضا ووصولا، وجعلتنا الأحياء بصلته والعباد بمعرفته، وجعلت أمته أمة وسطا يقومون آدما ويُعَبِّدون أنفسهم لقديم لآدم، ويجددون أنفسهم في الحياة آدما.. ويتركون ويُخَلِّفون من بعدهم آدما.. هذا دينهم وهذا إيمانهم وهذا شرعهم وهذا علمهم.. إذا ارتضيتهم تفضلا منك على عبدك ومرتضاك للدوام رسالة، وارتضيتهم للدوام كتابا، وارتضيتهم للدوام آدما، وارتضيتهم للدوام إنسانا، وارتضيتهم للدوام حقا، وارتضيتهم للدوام لك عبدا.

إن هذه البشرية.. إن هذه الأرض.. إن هذه الدحية بين دحى الله في واسع ملكه تحمل أصول إنسانية ما قبل آدم. منها يبدأ ومنها يصطفي بأولية بيته يرفع، كما تحمل إنسانية ما بعد آدم عليها يتحقق بمعاني حقه ببيته يوضع.

إن هذه الأرض وهذه البشرية تقوم بها جنة آدم كما تقوم بها أرض بعده، ومنها ذات قطيعته وذات رجعته وذات نشأته، كما تقوم بها أرض اختباره وأرض اجتبائه وأرض علمه وارتقائه، في معانيه من ذاته.

إن هذه البشرية كتاب جامع للحياة، بحاضر الحياة من قائم الحياة.. ترى فيها بدايات لآدم، وترى بينها نهايات لآدم، وترى فيها اصطفاءات لآدم. ويرى بين أهلها حقائق لآدم، ويقوم عليها عباد للرحمن يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما. كما يقوم عليها رجال للطاغوت يفسدون في الأرض باسم الإصلاح، ويقومون بالطلاح باسم الفلاح، ضل سعيهم، إذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون، وإنهم المفسدون ولكن لا يشعرون. فكيف عن الفساد يردون؟ وكيف السبيل إلى حماية الأرض منهم؟ إلا بالالتجاء لله رب العالمين الذي بحكمته أبدعهم، ومعرفة أسباب حكمته، والعمل لإجابة إرادته.

إن هذه الأرض يجتمع عليها آدمية ما قبل آدم، وآدمية آدم، وآدمية ما بعد آدم.. عليها يتلاقون وعليها يتعارفون.. إن هذه الأرض تجمع آدما في اصطفائه وآدما في ابتلائه، فيها يتباغضون وعليها يتنافرون ويقتتلون.

إن هذه الأرض تجمع آدما هُدِي السبيل، وآدما ضل السبيل.. تجمع آدم الصحيح السليم وآدم العليل السقيم. عليها يتعارفون، ويتعاونون، ويتناصحون.

يا أيها الناس..

ابدأوا معارفكم من أنفسكم، وابدأوا أمركم من ذواتكم، وابدأوا حياتكم من يومكم من حاضركم، واعلموا أن ما تشهدون من روح الله تدانيكم وتكلمكم من وراء حجاب من بينكم إنما هي بقية الله من حقية رسولكم من أنفسكم، جاء به الحق إلى أرضكم وكان أولية عباد لبيت لله من بينكم، بكم يقوم وبكم يبعث، ولم يكن آخرية عباد الله منكم أو آخرية بيوت الله لكم.

إن الروح المرشد الذي يدانيكم مرسلا من الروح الأعظم على الوجود القائم بكم، إنما هو رسول الله، إنما هو بقية رسول الله تدانيكم من حقيقة الأعظم بالحق لكم من الله لتذكركم وتجدد لكم أمور دينكم، لتعلمكم أن الدين إنما يقوم في شهادة أن لا إله إلا الله وفي شهادة أن محمدا رسول الله، وأن شهادة

أن لا إله إلا الله تُشهد في شهادة أن محمدا هو الحق المرسل من الله، وأن شهادة أن محمدا رسول الله، لا تشهد الحق من الله إلا بشهادة أن لا إله إلا الله.. فهما شهادتان متلازمتان لا تنفصلان ولا تفترقان أبدا، لا تتقدم أحدهما على الأخرى ولا تتخلف أحدهما عن الأخرى (تركت فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي، ما إن تمسكتم بهما لا تضلون أبدا، فإنهما لا يفترقان أبدا)[٨]، فكتاب الله في شهادة أن لا إله إلا الله، وعترة رسول الله تقوم بشهادة أن محمدا رسول الله في الناس يتكاثر، وفي الناس يمتد وفي الناس ينتشر ويتناثر.. فيهم يتواجد، به يحيون ويتواجدون وجوها لله وحقائق من الله.. فهما شهادتان متلازمتان في دين الله معنى للا إله إلا الله. ولأن عباد الرحمن يمشون على الأرض عترة رسول الله، وعَلما على رسول الله، ووجوها لله مطلة من بيت الله، فهم الحق من الله في دائم تعريفه عن شهادة أن لا إله إلا الله لا يفترقون عن الكتاب ولا يفترق الكتاب عنهم. من عرف الكتاب مستقلا عنهم فقد ضل وأضل، أضله الله بالكتاب. ومن تمسك بمعناهم دون الكتاب جهلا منه، وجهلا به وجهلا بهم ولم يقم بكتاب الله فقد ضل.. إنهما لا يفترقان أبدا.. إنهما عماد الحقيقة وعماد الطريقة، وعماد الدين، وعماد اليقين، وعماد النجاة.. {ولمن خاف مقام ربه جنتان}[٩] من ذكر ربه في نفسه تضرعا وخيفة.. عرفه في نفسه ونجَّاه، وأذهب عنه الخوف ما قطعه وما جفاه، وما نسيه أو تناساه، وما أغفله في أخراه من دنياه، قائما لله وجها له في معناه {واُذكر ربك في نفسك...}[١٠].

إن الله يُخشى في قطيعته، ولا يخشى في عذابه.. مرحبا بناره مع وصلته، ولا كانت جنة مع قطيعته. إن الحقية في الجنة في الاتصال به، في اتصال القلوب بالاجتماع عليه. وإن العذاب إنما هو في فرقة القلوب تنفصل عن القلوب عامرة به. إن العذاب في الجهل به، وفي السير في الظلام لا هدى منه ولا نور يسري في القلب عنه.

ليس هناك جهنم إلا في قطيعته، وليس هناك جنة إلا في أن تنجو بوصلته.

ما كان الله ليعذبهم لو سلكوا طريقه، ما يرسل الله بالآيات إلا تخويفا، ما يفعل الله بعذابهم، إن الله مخرجهم من النار التي طال اصطبارهم عليها، وراحمهم بوصلته التي غفلوا عنها، ما تذكروه واتبعوا السبيل.

اذكروا الله في أنفسكم لا تعمهوه، واذكروه رحيما لا تجافوه، واذكروه متصلا لا تقطعوا أنفسكم منه، واذكروه كريما ما شكرتموه، فهو يرحمكم ويخلصكم من أنفسكم ما طلبتموه، وهو قريب منكم ما ذكرتموه، وهو مجيب لكم ما ناديتموه. وهو ملاقيكم بكم ما وحدتموه.

اللهم إن حالنا ظاهر بين يديك. اللهم فتولَنا وارحمنا. اللهم عاملنا بما أنت له أهل وعافنا مما نحن له أهل. اللهم خذ بيدنا حكاما ومحكومين، وقوم فيك طريقنا، وأوضح لنا سبيلنا. اللهم ولِ أمورنا خيارنا، ولا تولِ أمورنا شرارنا. اللهم تولَنا برحمتك عاصين وطائعين، وتولَنا برعايتك يقظين وغافلين، وخذ بيدنا أجمعين، وأنزل سكينتك على قلوبنا والسلم والسلام على أرضنا.

أضواء على الطريق

من هدي القرآن:

- إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء.
- أينما تولوا فثم وجه الله - والله من ورائهم محيط - أقرب إليكم من حبل الوريد - ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر.
- كل من عليها فان ويبقى وجه ربك - يرث الله الأرض ومن عليها - كشفنا عنك غطاءك - قل جاء الحق.
- قائم على كل نفس بما كسبت، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت - إن الأرض يرثها عبادي الصالحون.

مصادر التوثيق والتحقيق

١ سورة النساء - ١

٢ سورة النساء - ٤٨ , سورة النساء - ١١٦

٣ سورة الزمر - ٥٣

٤ سورة الفاتحة - ٥

٥ سورة الفاتحة - ٥

٦ سورة الفاتحة - ٦

٧ سورة الفاتحة - ٧

٨ إشارة إلى حديثين شريفين: "إني قد تركت فيكم الثقلين أحدهما أكبر من الآخر، كتاب الله عز وجل حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي ألا إنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض". أخرجه أحمد بن حنبل في مسنده. و"إني تارك فيكم ما إن استمسكتم به لن تضلوا بعدي أحدهما أعظم من الآخر كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي ولن يتفرقا حتى يردا على الحوض فانظروا كيف تخلفوني فيهما". جاء في سنن الترمذي:

٩ سورة الرحمن - ٤٦

١٠ سورة الأعراف - ٢٠٥